

قصة قصيرة

ما بعد الزيارة

إبراهيم حميدان

كانت الغرفة تكاد أن تكون ممتلئة بالأشخاص، فبالإضافة إلى أسرته الخمسة المشغولة بالمرضى كانت هنالك مجموعات الزوار وقد التفت كل مجموعة حول مريضها، تحاوره، تحذره، تحاول أن تزيل عن قلبه طبقات الحزن والأسى وتشيع فيه شيئاً من الصبر، شيئاً من السلوى والأمل.

وهو كان هناك، مضجعاً على سريريه، ممتقع الوجه، غائر العينين، غزت التجاعيد وجهه وعنقه وكأن عربة الزمن انحدرت به نحو الشيخوخة وهو الذي لم يتجاوز سن الأربعين إلا بسنوات قليلة. كان جسده مغطى تماماً بشرشف أبيض رقيق، فيما عدا وجهه ويديه اللتين كان يستعملهما أثناء الحديث. كان صوته وقوراً، رصيناً، ينم عن فؤاد مطمئن، ونفس صلبة، قوية كالصخر، لم يوهنها الحدث الجليل الذي ألمَّ به. فليس شيئاً هيناً أن تبتز ساق المرء، فإن لم يكن المرء ثابت الجنان، رابط الجأش فإنه قد يتعرض لانحيار نفسي عنيف، تكون له انعكاساته السلبية على حياته في المستقبل، وهذا ما كان يخشاه زواره ذلك اليوم. كانوا يتوقعونه كاسف البال، مكسور الخاطر يئن ويتوجع، ويرثي نفسه وأسرته التي أمست بلامعيل بعد أن صار عاجزاً عن العمل.

كانت تلك الأفكار تتراحم في رؤوسهم وهم في طريقهم إليه، غير أن الدهشة عقدت ألسنتهم ساعة أن وقفوا أمامه، وقد بدا رابط الجأش، واثق النفس، راسخ الإيمان بالله وقضائه الذي لا يردّ. وفيما عدا ابنه الصبي الذي ظلّ جالساً على حافة السرير يحدق في ساق أبيه المبتورة بعينين مخضلتين ووجه شاحب ممتقع فيما عدا هذا، فإن كافة زواره ذلك اليوم، كانوا ينظرون إليه في ودّ وإعجاب وقد زابتهم كل مشاعر القلق والحزن التي استقرت في قلوبهم ساعة سماعهم النبأ.

فها هو الرجل أمامهم في أحسن الأحوال. ساقه بترت نعم، ولكن إرادته لم تبت. عزيمته لم تتقوض وروحه لم تزايلها

الدعابة ولا فارقتها المرح، وها هو يحدثهم في جرس باسم، ينضح بالاعتداد بالنفس، النفس المتماسكة المتينة، التي لا توهنها الملمات ولا تفت فيها الخطوب.

ولقد تباينت آراء الزوار فيما بعد في تفسير ذلك، فبعضهم عزاه إلى تعدد المحن والتجارب المريرة التي مرَّ بها الرجل خلال حياته، والبعض الآخر فسره بإيمان الرجل الشديد بالله وخضوعه لقضائه وقدره، والبعض الآخر أرجعه إلى الروح الساخرة الهازئة بكل شيء.

وحين سأله أحدهم عن بداية المرض معه، استند بكوعيه على الفراش وانسحب بجسده إلى الوراء، متكئاً بظهره على مؤخرة السرير، وشرع يقول:

— في البداية كان عبارة عن دملة صغيرة متقيحة في قدمي، أخذت تفرز سائلاً أصفر بشكل دائم مما جعلني أسارع إلى المستوصف العام، هناك فحصني الطبيب فحصاً سريعاً ثم... وقاطعه أحدهم:

— طيب باكستاني طبعاً؟

فأجاب المريض مبتسماً:

— والله، لا أدري، طيب باكستاني، باكستالث... المهم، أخذت أستعمل ذلك الدواء الذي عينه لي الطبيب، ومع مرور الأيام اكتشفت أن قدمي شرعت تلتهب وتتورم، لتصبح حمراء كحبة الطماطم.

عدت للمستوصف العام، وجدت طبيباً آخر، أعطاني دواء مغايراً للأول، وداومت على استعماله، غير أنني فوجئت بأن الأمر يزداد سوءاً، لقد تورمت القدم بالكامل واحمرت مقدمة الساق، وأخذت تفوح منها رائحة عفن، تعفنت القدم، وعلى الفور سارعت إلى المستشفى العام، هنالك فحصني الطبيب الأخصائي فحصاً دقيقاً، وأخطرتني بأن حالتي تستوجب عملية سريعة لا تحتتمل أي تأخير، وأني إزاء أمرين لا ثالث لهما: إما أن تبتز الساق، أو يستشري السم في جميع أرجاء الجسم.

صمت المريض، وقد أحس أن حلقه قد جف تماماً، مدّ يده إلى زجاجة مليئة بالماء ليملا كوباً. وضع إلى جانبها على سطح (الكوميديني) الصغير المجاور لسرير المريض، وفيما كان يعب من تلك الكأس، كانت أنظار الزوار من حوله معلقة به ترمقه باهتمام متزايد ورغبة مطّردة في سماع بقية القصة... مسح المريض فمه بكفه ووضع الكأس على (الكوميديني) واستطرد:

— لم يعد أمامي خيار... وقلت لنفسي لا مفر من قضاء الله (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ثم إذا كانت تلك القدم البشعة المتعفنة ستقضي علي فلماذا أبقى عليها؟ وقلت لهم اقطعوها... اقطعوها وخلصوني من هذه القدم الشريرة. وفعلاً قطعوها وتمت العملية بنجاح باهر والحمد لله.

وصمت المريض مرة أخرى، وراى على الحاضرين وجوم
أخرس قطعه الصبي في صوت خنقه الحزن والرغبة المكبوتة في
البكاء:

— والآن... هل تشعر بوجع في ساقك؟

— كلا، فقط رباطات الشاش التي تضغط على ساقى تؤلني

بعض الشيء.

وسأله أحد أصدقائه:

— ألم تفكر في العلاج خارج البلاد؟

— أي خارج هذا وأي داخل يا صديقي العزيز؟... أقول

لك إنه شيء مكتوب.. هل يستطيع (الخارج) أن ينقذني من
المكتوب؟

ومضى يجيل النظر في وجوه الحاضرين كأنه يستحثهم على

تأييده فيما قال.

وتتم بعض الحاضرين:

— صحيح.. مكتوب.. (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله

لنا)

واستطرد المريض بصوت أكثر حماساً:

— يجب ألا نشرك بالله يا جماعة ونقول لوفعلنا كذا لكان

كذا، إنها إرادة الله وقضائه.. ثم إن العملية تمت بنجاح تام

والحمد لله، لقد بتروا ساقى بمنتهى السهولة واليسر.. ما أشطرهم

يا أخي في البتر! لقد رأيتهم بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود

يوماً، رأيتهم يقطعون ساقى مثلما يقطع الخشب، دون أن أتوجع

أو أطلق آهة ألم واحدة.. كل ذلك بسبب إبر التخدير الرائعة التي

زرعوها في فخذي قبل إجراء العملية.

وأيقن الزوار أن الرجل يتمتع بمعنويات مذهلة الرسوخ

والتماسك، وأن العملية الجراحية التي أجراها بالأمس لم تفت في

عضده على الإطلاق، بل زادته صلابة وثباتاً.

وحين أرف الوقت، سألوه إن كان يحتاج إلى شيء فشكرهم
جميعاً. ثم أخذوا يتقدمون نحوه واحداً بعد الآخر، مصافحين إياه
بحرارة طاغية، متمنين له الشفاء التام والعودة السريعة إلى الأهل
والأسرة، وقال له أحدهم وهو يشد على يده مبتسماً:

— صدقتي أي أغبطك على هذه الإرادة المتينة والعزيمة

الصلية.

وعندما أتى دور ابنه، انخرط الصبي في البكاء، وهو

يحتضن أباه ويغمره بالدموع والقبلات غير أن الأب انتهره في

لطف وقال له:

— هيا لقد صرت رجلاً يا عمر.. أنت المسؤول الآن عن

البيت... بلغ سلامي لأمك وإخوتك، وأعلمهم أي بأحسن

الأحوال.

انسحب الفتى مطرق الرأس دافع العينين، ورفع المريض

يده مودعاً زواره الذين شرعوا يغادرون الغرفة واحداً تلو الآخر.

عاد الهدوء إلى الغرفة. التفت إلى بقية المرضى، هم أيضاً

غادروهم زوارهم. انتهت الزيارة إذن، وعادت الحياة الروتينية إلى

المستشفى، تشاغل بالنظر إلى السقف، أحس بشيء حارق، كإ

يلهب أعماقه وبغصة شرسة تنشب أظافرها في حلقة، عاد يرمق

بقية المرضى من حوله، كان أحدهم يدير مؤشر الراديو باحثاً عن

محطة ما، الذي يليه يتصفح مجلة مصورة يبدو أن أحد زواره قد

جلبها له، الآخر يتكئ على عكازيه ويتأهب لمغادرة الغرفة، وقد

تدلّت ساقه المتبورة بين العكازين الخشبيين وشرعت تتأرجح مع

حركة سيره. عضّ شفته السفلى وأغمض عينيه بقوة وإصرار،

أنشب أصابعه في الفراش مغالباً قوة قاهرة تحتدم في أعماقه،

ورويداً رويداً أخذ جسمه يخلج، ويتفرض انتفاضات متتالية،

تراخت أصابعه القابضة على الفراش وانفجر بالبكاء.

طرابلس — ليبيا

دار الآداب تقدم

رؤوف وصيف

الحب
خارج الزمن

صدر حديثاً

الحب
له صور

ليل عثمان

صدر حديثاً